الفصل الرابع

توظيف التراث التاريخي

obeikandl.com

obeikandl.com

الفصل الرابع
توظيف التراث التاريخي

تناولت الكاتبة ديمة السمان في رواياتها مرحلة زمنية طويلة نوعًا ما، بدءًا من مراحل ضعف الخلافة العثمانية، والسفر برلك، مرورًا بالانتداب البريطاني على فلسطين وصولاً إلى الاحتلال الصهيوني لفلسطين، معرجة على نكباته المتتالية منذ العام ثمانية وأربعين وتسعمائة وألف.

تنوعت الإشارات إلى التاريخ القديم والحديث، وتجسد الزمن التاريخي باستخدام الوقائع والأحداث المتصلة بالقضية الفلسطينية، والأحداث العربية، والأحداث العالمية، وقد استلهمت الكاتبة بعض نصوصها من الواقع الزمني.

كما عبَّرت عن تأثرها بالقومية العربية عندما وظفت ألفاظاً من خطب الرئيس المصري الراحل جمال عبد الناصر، فقد ذكرت على لسان (عبد الجبار الابن): "نحن أمة عربية واحدة.. ذات رسالة خالدة"[277].

---

[277] ديمة السمان، برج اللقلق، 2/ 64.

obeikandl.com

تكررت تلك الألفاظ في خطب عبد الناصر([278])، ولم تخل خطبة في تلك الأيام من زمن الرواية إلا ووردت فيها مثل هذه الألفاظ التي تدعو إلى الوحدة في مواجهة الاستعمار الغربي، بل إننا الآن ندعو ونتشوق إلى وحدة الصف العربي، لأن الوحدة هي السبيل الوحيد الذي نواجه به هجمة الاستعمار الغربي على بلادنا العربية، من المحيط إلى الخليج، ونحن الفلسطينيين في أمس الحاجة إلى هذه الوحدة؛ وحدة شعبنا، ومن ثم وحدتنا الكبرى مع أمتنا العربية الإسلامية.

استعانت الكاتبة بهذه الألفاظ لتمرر فكرتها وموقفها من الوحدة العربية، وترسل دعوة صريحة إلى شعبنا الفلسطيني بأن الوحدة هي سلاحنا الوحيد للحصول على حريتنا.([279])

([278]) ينظر: وليد أبا بكر: تجليات الواقع في الفن القصصي قراءات نقدية، ط1، رام الله: منشورات مركز أوغاريت الثقافي للنشر والتوزيع، 2003. ص21.

([279]) ينظر: الجمهورية العربية المتحدة، مجموعة خطب و تصريحات و بيانات الرئيس جمال عبد الناصر، القسم الثاني فبراير 1958 – يناير 1960، القاهرة: مصلحة الاستعلامات، ص 180–185.

obeikandl.com

ذكرت الكاتبة قصة صلاح الدين الأيوبي؛ القائد المسلم الذي قام بعلاج أعتى أعداء المسلمين (ريكاردوس قلب الأسد)، وذلك بهدف إعطاء الذريعة لعنبرة بمعالجة عدو زوجها (زهدي لقمان).

جاء هذا التوظيف على لسان شخصية الرواية (سليم العطار)، بهدف إقناع أبناء عائلته الذين رفضوا أن تذهب زوجته عنبرة لمعالجة عدوه، وحتى تبين لنا الكاتبة شدة رفض التعامل مع عدوهم من آل لقمان، ولإثبات وجهة نظر إنسانية، بأن الواجب الإنساني يتفوق بالضرورة على العداوة والضغينة، فكان توظيفها هنا بنّاءً ومثمرًا.

وردت قصة صلاح الدين الأيوبي مع ريكاردوس قلب الأسد، عندما ذكر: "وهنا ظلّ صلاح الدين محتفظًا دائمًا بكرم أخلاقه في معاملة الصليبيين، فأرسل إلى ريتشارد ما طلبه في مرضه من فاكهة وثلج حتى شفي.."[280].

استخدمت الكاتبة ألفاظًا لها علاقة بالتاريخ الإسلامي عندما قالت:

---

[280] سعيد عاشور، الحركة الصليبية، 2/ 866.

obeikandl.com

"لقد احرقت السُفن خلفي"[281]. ورد هذا القول عندما فتح القائد المسلم (طارق بن زياد) الأندلس، فقد قال آنذاك في خطبة له مشهورة: "أيها الناس أين المفر؟ البحر من ورائكم والعدو أمامكم وليس لكم والله إلا الصدق والصبر، واعلموا إنكم في هذه الجزيرة أضيع من الأيتام في مأدبة اللئام.."[282].

استخدمت هذا القول كمثل يقتدى به، عندما قالت (عائشة) بأنها أحرقت كل سفنها، أي انه لا مفر لها من أن تكمل طريقها نحو حبيبها (عياش)، فلا شيء لديها لتخسره. وهنا فقد جاء استخدام المقولة التاريخية على سبيل المثل مناسبًا، في إثراء الحوار الروائي.

وظفت الكاتبة معلوماتها التاريخية عن حملة نابليون على مدينة عكا عندما قالت: "أما أنا فابن مدينة عكا، حفيد الجزار قاهر نابليون.."[283]. ذكرت الكاتبة مدينة عكا، والجزار، وحملة نابليون على عكا؛ في هذا السطر يوجد الكثير ليقال، فالجزار ليس من أهل عكا كما ذكرت

([281]) ديمة السمان، الضلع المفقود، ص180.

([282]) المقري، نفح الطيب، 1/ 240؛ أحمد مختار العبادي، تاريخ المغرب والأندلس،23؛ تكرر هذا التوظيف في الأصابع الخفية، 44، عندما قالت الكاتبة على لسان دوامة البحر: "وقعت في المصيدة يا حفيد شيخ البحر القاتل.. أين المفر؟ فحبل الموج خلفك وقعر البحر أمامك."

([283]) ديمة السمان، م.س.، ص3.

الكاتبة.([284]). تعرفنا الكاتبة بالشخصية الرئيسة في الرواية بأنها من أحفاد الجزار، لأنها كانت تقصد الاعتزاز بـ (عناد) كعربي من عكا.

ورد عن نابليون وحملته على مدينة عكا في سلسلة المدن الفلسطينية (عكا): "فالنصر الذي كان، إنما كان لعكا، وأهل عكا، وأهل فلسطين، ولم يكن للجزّار، وأمثاله ليسوا بقادرين على هزيمة الأعداء الغزاة."([285]). تصور الكاتبة اعتزاز الشخصية بنفسها، وبأنها حفيدة "الأبطال"، لكنها نسبت الشخصية إلى مدينة عكا أولاً، وإلى الجزار ثانيًا، أما نسبه إلى المدينة فهذا شيء جميل، لكن نسبه إلى (الجزار) شأن فيه نظر.

مرت الكاتبة على ذكر الجبل الذي وقف عليه أمير المؤمنين عمر بن الخطاب عندما قالت على لسان (نفيسة الابنة): "جبل المكبر الذي وقف عليه عمر بن الخطاب ذات يوم ليتسلم القدس."([286])

أرادت التعبير عن القيمة النفسية والمعنوية لبيوت البلدة القديمة من القدس الشريف، فهي تعانق تاريخنا الإسلامي معانقة حميمة وجدانية،

([284]) الجزار: إنما هو من مواليد البوسنة، (1148هـ) وكان مملوكًا في مصر، حارب أعداء السلطان، واشتهر بقسوته على أعدائه، توفي سنة (1292هـ)، ثم عُيّن حاكمًا على بيروت، وضم إلى ولايته صيدا وعكا. ينظر: محمد شراب، عكا، 122.

([285]) محمد شراب، عكا، ص127.

([286]) ديمة السمان، برج اللقلق، 2/ 119.

فقيمتها لا تقدر بثمن، ولا يمكن التعويض عنها؛ ليأت ابنها الذي يرتبط بالعمالة مع يهود المحتلين محاولاً بيع بيتهم في القدس للمستوطنين اليهود، فقررت بأنه يستحق القتل قبل أن يفعل ذلك. حقيقة فإن من يبيع أرضًا أو بيتًا في أي مكان للعدو فهو يستحق القتل، فما بالكم ببيوت القدس القديمة؟ هي رسالة من الكاتبة تريد القول فيها بأن من يبيع بيته للمحتل هو عميل خائن يستحق أشد عقاب، فالقدس تمثل تراثنا التاريخي الذي سطره الشرفاء بأحرف من نور ونار، وهو التاريخ الذي أعطى فيه أمير المؤمنين عمر بن الخطاب الأمان لأهل القدس من النصارى وتشهد على ذلك (العهدة العمرية)، التي وقّعها بشهادة خالد بن الوليد، وعمرو بن العاص، وعبد الرحمن بن عوف، ومعاوية بن أبي سفيان. نجد ذلك في كتب التاريخ الإسلامي، ومنها ما ورد في (الأنس الجليل): "ولما قدم عمر بن الخطاب رضي الله عنه بيت المقدس نزل على الجبل الشرقي وهو طور زيتا، وأتى رسول- بطريقها إليه- بالترحيب وقال: إنا سنعطي بحضورك ما لم نكن نعطيه لأحد دونك، وسأله أن يقبل منه الصلح والجزية وأن يعطيه الأمان على دمائهم وأموالهم وكنائسهم، فأنعم له عمر بذلك."[287]

---

[287] مجير الدين الحنبلي، الأنس الجليل بتاريخ القدس والخليل، بغداد: مكتبة النهضة، 1995، 1/

obeikandi.com

جاء هذا التوظيف مباشرًا أثناء الحوار الداخلي عند الشخصية الروائية، لكنه خدم الفكرة التي أرادت الكاتبة توصيلها، إلا إنه لم يتفاعل مع النص الروائي بقيمته الفنية، إنما جاء كذكر تاريخي يرتبط به الإنسان المقدسي ارتباطًا وجدانيًّا وثقافيًّا وتراثيًّا.

توظيف الأحداث التاريخية العربية

وظّفت الكاتبة الأحداث التي مرت بها الساحة اللبنانية في العام اثنين وثمانين من القرن الماضي، وخصوصًا الاجتياح الإسرائيلي للأراضي اللبنانية، بهدف القضاء على الوجود الفلسطيني المسلح، في هجوم عسكري واسع النطاق، اشتركت فيه جميع وحدات القتال العسكرية الصهيونية، والتي أُطلق عليها (سلامة الجليل)، قولها: "قامت إسرائيل بحرب سلامة الجليل.. وكان على سلام أن يرتحل مع رجاله إلى الخطوط الأمامية في الجنوب.."[288]

.255

[288] ديمة السمان، القافلة، ص214.

ذُكر هذا الاجتياح في: "فإن نية العدوان المبيتة وجدت ترجمتها على أرض الواقع اجتياحًا إسرائيليًّا واسع النطاق للأراضي اللبنانية، حمل الجيش الإسرائيلي خلال بضعة أيام على مشارف العاصمة بيروت، وقد تعمدت الحكومة الإسرائيلية إخفاء أهدافها الحقيقية بعيدة المدى من هذه العملية العسكرية عندما حددت في بيان إعلان الحرب(6 حزيران/ يونيو 1982) نيتها عدم مهاجمة القوات السورية المتمركزة في الأراضي اللبنانية.(289)

حاولت الكاتبة بهذا التوظيف، ربط أحداث روايتها، وتسلسل حبكتها، بما يدور على الساحة العربية، وما يتعلق بالقضية الفلسطينية التي حاولت الكاتبة الولوج إلى دهاليزها الوعرة، فـ (سلام) الشخصية الثورية التي هي بمثابة صورة لكل شاب فلسطيني يعيش حالة الألم، ويأمل في القيام بدوره تجاه بلاده التي انتهك الاحتلال حُرماتها، وقضم جذورها أمام أنظار العالم.

وجاء هذا التوظيف في مرحلة زمنية متسارعة، ففي بحر إحدى عشرة صفحة من مجموع صفحات الرواية المائتين وخمس وثلاثين صفحة؛ امتد الزمان من سقوط دير ياسين إلى اجتياح لبنان في بداية الثمانينيات. أربعة

(289) مؤسسة الدراسات الفلسطينية، فلسطين تاريخها وقضيتها، 311.

obeikandl.com

وثلاثون عامًا، مرت عليها الكاتبة بلمح البصر، وهذا المرور السريع أذهب الإبداع وأربك القارئ، فلم يكن التوظيف موفقًا.

وظفت الكاتبة معلوماتها عن الشريف حسين بن علي عندما قالت على لسان (الأستاذ حيدر): "لا تستخف بالأمر يا أبا طاهر.. فهؤلاء أتباع الشريف حسين بن علي.. الذي دخل في الحلف الأوروبي ليوحد الأرض العربية ويصبح ملكًا عليها."([290])

"انصبّ اهتمام الحلفاء خلال الحرب العالمية الأولى على هزيمة الإمبراطورية العثمانية بأقصى سرعة ممكنة، وبأقل التضحيات البشرية والمادية، وكان الحلفاء على يقين بأن هذه المهمة ستكون أكثر يسرًا لو استطاعوا إقحام العرب في ثورة ضد حكامهم الأتراك، ولذلك سعوا لإيجاد زعيم عربي يتمتع بمقدار من القوة والمكانة كافٍ لحمل شعبه على إعلان التمرد.

ووقع الاختيار للقيام بهذه المهمة على الحسين بن علي، سليل بيت النبوة وشريف مكة المكرمة وأحد الشخصيات البارزة في جزيرة العرب."([291])

([290]) ديمة السمان، برج اللقلق، 1/ 159.

([291]) واصف عبوشي، فلسطين قبل الضياع، ص17.

وظفت الكاتبة هذه المعلومات على لسان إحدى شخصيات الرواية المثقفة، وهو الأستاذ الذي كان يطالع الأحداث أولاً بأوّل، ويتابع كل ما يجري على الساحة العربية[292]، ولذلك فقد جاء هذا التوظيف مناسبًا لواقع الحال، فعزّز من قيمة المعلومات التاريخية الواردة في السرد الروائي، علمًا بأن التوظيف جاء بشكل خطاب أثناء حوار كان دائرًا بين الشخصيات في الرواية، وهنا تُبرز الكاتبة الحالة السياسية، التي كانت سائدة في زمن الرواية، وهي الفترة بين تداعي قوة الخلافة العثمانية وتآمر الحلفاء على العرب وتأسيس دولة يهود.

كما عرّجت الكاتبة على توظيف معاهدة (سايكس بيكو) عندما قالت على لسان (الراوي): "في صباح اليوم التالي صحت الأمة العربية على زلزال اسمه معاهدة سايكس بيكو تقاسمت فيها بريطانيا وفرنسا البلاد العربية."[293].

رصدت اتفاقية سايكس بيكو بنقاطها كما وردت بالاتفاقية تمامًا، تلك الاتفاقية التي قسم الاستعمار البلاد العربية بين أقطابه، وصارت الأرض العربية مقسمة إلى أجزاء صغيرة (دويلات) بحيث يسهل

---

[292] ينظر: وليد أبا بكر، تجليات الواقع في الفن القصصي، ص20.

[293] ديمة السمان، برج اللقلق، 1/ 174.

السيطرة عليها على مبدأ (فَرِّقْ تَسُدْ) الذي اتبعه الإنجليز للسيطرة على المنطقة العربية آنذاك، وما زالت هذه السياسة متبعة عند أقطاب المشروع الاستعماري الغربي إلى أيامنا هذه، فقد جزأت الدول الاستعمارية وطننا العربي بحيث لا يمكن أن تتشكل قوة موازية للمشروع الغربي بأي حال من الأحوال، وبالأمس قامت بفصل جنوب السودان عن شماله، والحبل على الجرار في تجزئة المجزّأ، وورد الكثير من المعلومات في دراسة تطرقت إلى (مراسلات الحسين مكماهون)، وذكرت كثيرًا من تفاصيل تلك المراسلات، ومنها ما جاء حول اتفاقية (سايكس بيكو) إذ تقول: "بقيت اتفاقية سايكس بيكو سرية من موظفي القاهرة، لقد كانوا هم الذين نادوا بإعلام حسين عن تفاصيلها."([294])

تبين في هذا التوظيف مقدار السخط الذي شعر به العامة في تلك الفترة عندما نشرت اتفاقية سايكس بيكو بين الناس، معتبرين أن بريطانيا لم تفِ بالتزاماتها للعرب.

نقلت الكاتبة الصورة التاريخية بحذافيرها، لكن بعيدًا عن الأسلوب الروائي الفني، وانتقلت إلى مقولة للقائد الإنجليزي الجنرال (ألنبي)

([294]) إيلي قدوري، في المتاهة العربية– الإنجليزية، 185؛ مؤسسة الدراسات الفلسطينية، تاريخها وقضيتها، ص46.

ذكرتها على لسان (أبو رعد): "هل سمعتما ماذا قال الجنرال ألنبي عند نهر الأردن.. "اليوم انتهت الحروب الصليبية"."[295]. ورد هذا القول في (الطريق إلى القدس): "وقد دخل البريطانيون القدس في 9 من كانون أول/ ديسمبر 1917، وهناك أعلن القائد البريطاني ألنبي في خطابه "اليوم انتهت الحروب الصليبية"[296].

وظفت الكاتبة الحدث الأهم في التاريخ المصري، بقولها: "بينما كان عبد الجبار يلوم أبا الطاهر على قسوته وكلامه الجارح إذا بموعد إذاعة خطاب جمال عبد الناصر الذي وصف بأنه مهم جدًّا.. وتتحرق الجماهير لسماعه قد أزف.. وانطلق يعلنها مدوية: "تأميم شركة قناة السويس" وعمَّت العالم العربي من المحيط إلى الخليج فرحة وبهجة"[297].

---

[295] ديمة السمان، برج اللقلق، 1/ 175.

[296] محسن صالح، الطريق إلى القدس- دراسة تاريخية في رصيد التجربة الإسلامية على أرض فلسطين منذ عصور الأنبياء وحتى أواخر القرن العشرين، طبعة القاهرة الأولى، القاهرة: مركز الإعلام العربي، 1424هـ/ 2003م، ص 194. كتاب القدس(22).

[297] ديمة السمان، م.س.، 2/ 14.

obeikandl.com

من خلال هذا التوظيف، فإنها تصور الفرحة التي عاشتها الأمة العربية من المحيط إلى الخليج نتيجة هذا التأميم لقناة السويس(298)، واستطاعت دمج هذه المعلومة ضمن السرد الروائي التاريخي، بحيث كان مناسبًا لموضوع الحوار، فالهم الفلسطيني لا يختلف عن الهم المصري، والفرحة المصرية تُسعد الفلسطيني، وهذه هي الأمة العربية التي ترتبط بمصير واحد.

إلا أن بعض المثقفين العرب قد انتقدوا هذه الخطوة بعد أن اعترتهم المخاوف من ردة الفعل الغربية على هذه الخطوة، وقد ذكرت لنا الكاتبة هذه الفئة عندما قالت على لسان شخصياتها الحوارية: "نعم يا سيدي.. فهناك من أرعبهم هذا الخبر. لا بد أنهم خونة أو عملاء، لا.. بل مفكرون ومثقفون ودارسون.."(299).

ورد نص فيه هذا المعنى في موسوعة التاريخ الإسلامي عدَّ الكاتب فيه أن التأميم "حركة عناد وانفعالية": "الذي يدرس أحداث تأميم

(298) تأميم قناة السويس: فأعلن في 26 يوليو تأميم قناة السويس، واستعادة مصر لقناة السويس أمل يتمناه كل مصري. أحمد شلبي، موسوعة التاريخ الإسلامي، ط4، القاهرة: مكتبة النهضة، 1989. ص 482.

(299) ديمة السمان، برج اللقلق، 2/ 23.

القناة يدرك أن التأميم كان نتيجة تحرك انفعالي عاطفي لم يتحكم فيه العقل"([300]).

عرَّجت الكاتبة في معرض حديثها عن القضية الفلسطينية على استخدام الحدث التاريخي، بقولها: "بعد عدة أيام.. وكان ذلك في يوم الاثنين التاسع والعشرين من أكتوبر سنة ألف وتسع مئة وست وخمسين.. أعلنت إسرائيل الحرب على مصر.."([301])، فاعتبر البعض أن هذه الحرب، الحرب العربية الإسرائيلية الثانية كان فيها نهاية إسرائيل، إذ توضح الكاتبة من خلال حوار شخصياتها بهذا الشأن السياسي المحض أن (عبد الناصر) الرئيس المصري الراحل، بيده عصا سحرية يستطيع بها النيل من أعداء الأمة العربية عندما قالت: "غدًا إن شاء الله سيعيد لك عبد الناصر ثقتك بنفسك.. وفي العروبة.."([302]).

لكن العدوان كان قاسيًا، فانتهت الحرب بهزيمة عسكرية لمصر، على الرغم من أنها شكلت انتصارًا سياسيا للعرب، "وتعرف أيضًا باسم العدوان الثلاثي على مصر، وهي الحرب التي نشبت في العام 1956،

([300]) أحمد شلبي، الموسوعة الإسلامية، ص 483.

([301]) ديمة السمان، م.س.، 2/ 23.

([302]) ديمة السمان، م.ن.، 2/ 24.

وشنتها (إسرائيل) وإنكلترا وفرنسا ضد مصر، وانتهت بانتصار سياسي كبير لمصر وحركة التحرير العربية رغم أن النتيجة العسكرية لم تكن لصالح مصر."([303])

تبين من خلال هذا الحدث أن الناس كانوا يتشبثون بأقل الآمال، وكانوا يوهمون أنفسهم بأي حدث من شأنه أن يعيدهم إلى أراضيهم، وأن يكسر شوكة (إسرائيل)، فاستطاعت أن توصل فكرتها، ولكنها ابتعدت عن الأسلوب الروائي الفني، واستخدمت لغة تقريرية جامدة، جمود الحدث التاريخي.

تستمر الكاتبة في توظيف المعلومة التاريخية ضمن نسيجها السردي عندما تقول على لسان (الراوي): "فاجأت مصر وسوريا العالم في حرب تشرين أول 1973، فقلبت الموازين والمعايير.. ووقف العالم مبهورًا مبهوتًا يتلفت حوله.."([304]).

([303]) حرب 1973: "هي الحرب التي شنتها مصر وسوريا- وانضم إليها العراق وغيره من الأقطار العربية – ضد إسرائيل في 6 تشرين الأول- أكتوبر، 1973 بهدف خرق الجمود المهيمن على المنطقة منذ حرب 1967. "عبد الوهاب الكيالي وآخرون، موسوعة السياسة، بيروت: المؤسسة العربية للدراسات والنشر، (د.ت.) 2/ 205.

([304]) ديمة السمان، برج اللقلق، 2/ 71.

obeikandi.com

تصور الحالة النفسية السيئة للناس في الفترة بين هزيمة سبعة وستين وبين حرب أكتوبر([305]) من خلال ذكر الحدث التاريخي، لكن المهم بالأمر أن هذا التوظيف لا يساعد على النهوض الفني للسرد الروائي، بل على العكس من ذلك، فقد أذهب التوظيف التاريخي بالإبداع الفني عند الكاتبة، وحول النص إلى سرد تاريخي مجرد من النغم الروائي.

جلبت التاريخ في سردها بكل آلامه وأوجاعه، بتوظيفها على زيارة السادات إلى القدس عندما قالت: "إلى أن عاد وفاجأ الرئيس أنور السادات العالم بزيارة القدس.. وإلقاء خطاب في الكنيست الإسرائيلية.."([306]).

استهجنت الشعوب العربية فعلة السادات، وعدَّته خائنًا للعروبة، ومتخليًّا عن قضاياها المصيرية، وخصوصًا القضية الفلسطينية، وأعطت الزيارة قوة منيعة لإسرائيل، وأضعفت بالمقابل الموقف العربي، وصدمت إرادته: "قام أنور السادات بخطوته الحاسمة في 9 نوفمبر 1977، إن الرئيس المصري وللمرة الأولى خرج على التنسيق العربي فكانت مبادرته منفردة لم يشترك فيها أي زعيم عربي، فظلت مسيرته مشبوهة وموصومة

([305]) عبد الوهاب الكيالي، الموسوعة السياسية، 2/ 208.

([306]) ديمة السمان، برج اللقلق، 2/ 72.

obeikandi.com

بالخطيئة التي عزلت مصر وإسرائيل في تسوية جزئية منفردة وهو ما رفضه سائر العالم العربي.([307])

نقلتنا الكاتبة إلى تلك الأجواء السوداء، من خلال هذا التوظيف التاريخي الذي تسكن فيه الخيبات المتتالية للشعب العربي.

توظيف الأحداث التاريخية العالمية

تطرقت الكاتبة إلى ذكر أحداث عالمية في سردها الروائي، عندما قالت على لسان الراوي: "بدأت الحرب العالمية الأولى وزاد الأمر سوءًا"([308]).

لقد جاءت الكاتبة على هذا التوظيف لخدمة البنية الأساسية للرواية خصوصًا وأن هذا التوظيف قد جاء في بدايات السرد الروائي، فهو أساس لأحداث بُنيت عليها حبكة الرواية، من مثل: "نظام القرعة الذي

([307]) فيليب روندو، الشرق الأوسط في سعيه للسلام، ترجمة كمال الخولي، بيروت: المنشورات العربية، (د. ت.) ص 130؛ محمود فوزي، حكام مصر السادات، ط1، القاهرة: مركز الراية للنشر والتوزيع، 1997. 158.

([308]) ديمة السمان، الضلع المفقود، ص19؛ تكرر التوظيف في برج اللقلق، 1/ 153.

obeikandl.com

ابتدعته الحكومة التركية لانخراط الشباب في الجيش التركي، والمجاعة، والفقر، وغيرها.."[309]

كان لا بدَّ للكاتبة من استخدام هذا التوظيف، لأهميته بالنسبة إلى البناء الهندسي للرواية، وقد وُفقت الكاتبة بذلك التوظيف، واستطاعت أن تبني روايتها بطريقة ديناميكية.

توظيف الأحداث التاريخية الفلسطينية

وظفت الكاتبة الأحداث التاريخية التي مرت على الشعب الفلسطيني وكان لها الأثر الأكبر في نفسه، وفي تركيبته الاجتماعية، في وقت من الأوقات، ومن بين هذه الأحداث التي مرَّ بها هذا الشعب إبَّان الحكم العثماني، وخصوصًا في فترة الحروب، و(السفر برلك) عندما قالت: "أيام سوداء حلَّ فيها القحط وعمَّت المجاعة.. تعرف عليها الناس في ذلك الزمان "بالسفر برلك""[310]. ورد هذا في العديد من كتب التاريخ

([309]) ينظر: ديمة السمان، الضلع المفقود، ص19 – 22.

([310]) الضلع المفقود، ديمة السمان، ص18. تكرر هذا التوظيف في رواية القافلة ص110؛ وتكرر ذلك في برج اللقلق، 1/ 137.

obeikandl.com

ومنها ما جاء في كتاب "تاريخ الريف الفلسطيني في العهد العثماني": "أما المصدر الأكبر لمعاناة الفلاحين الفلسطينيين والذي لا زالت قصصه تتردد على ألسنتهم حتى أيامنا هذه فقد كانت حملات التجنيد القسري للجيش العثماني."([311]).

وُظفت تلك الأحداث بطريقة مباشرة، وبأسلوب تقريري يشبه الأسلوب الصحافيّ، الذي ابتعدت فيه عن الفن، فبدا نقلاً تاريخيًّا أكثر منه فنًّا روائيًّا.

جلبت الأحداث التاريخية من على رفوف الذاكرة الفلسطينية، واستندت إليها استنادًا قويًّا في بناء روايتها، وإعطائها الصبغة السردية التاريخية بقولها: "بدأت الحرب العالمية الأولى وزاد الأمر سوءًا.. فأدخلت الدولة نظام القرعة حتى سن الرابعة عشرة.. أي يؤخذ كل من بلغ عمره أربعة عشر عامًا لينخرط في سلك الجيش التركي أو يدفع بدلاً.. ثم دخل نظام السخرة.. أي تشغيل الفرد في أي عمل من قبل الدولة دون أجر.."([312]).

([311]) فتحي أحمد، تاريخ الريف الفلسطيني في العهد العثماني، 98.

([312]) الضلع المفقود، ديمة السمان، ص19؛ تكرر في برج اللقلق، 1/ 7 و 153.

عزز هذا التوظيف عنصر التشويق في الرواية، ولكنها كانت تعلل وتشرح الفكرة، الأمر الذي أبعد النص عن الأسلوب الروائي الفني، وأدخله في بوتقة السرد التاريخي التقريري المباشر.

ويتكرر التوظيف التاريخي في تجسيد الخلاف القائم بين عائلتي النشاشيبي والحسيني في رواية (الضلع المفقود)، بحيث أصبح هذا التوظيف محورًا أساسًا للرواية عمومًا، فقد تكررت الإشارة إلى هذا الخلاف في مواقع كثيرة في الرواية، وتداخل النص التاريخي مع السرد الروائي بحيث يصعب على القارئ معرفته، فهي تقول:

"كان مضيافًا ذكيًّا يستقطب حوله أهل الحي.. وجريئًا بحيث يحاول أن يستأثر بزعامة الحي، ويكون منافسًا شرسًا للشيخ سليم العطار.. وما بخل بإحسان يعود عليه بالمنفعة.. وخاصة الظاهر منه الذي يقطف منه ثمرة الاستحسان الفوري من أفواه العباد.. ولم يجبن عن تنفيذ ما أوحى له عقله الماكر بدسيسة أو تدبير مكيدة أو زرع بذور الشقاق بين أهل الحي ليعود فيحلها ويكسب فضل تسويتها لترتفع مكانته أكثر."([313]).

وردت إشارات كثيرة عن ذلك الخلاف بين العائلات المقدسية على السلطة في بدايات العشرينيات من القرن الماضي، خصوصًا ما ورد في

([313])ديمة السمان، الضلع المفقود، ص24 و24، 35، 107، 108، 118، 170.

obeikandl.com

"تاريخ فلسطين الحديث": "وهكذا تفادى صموئيل استعداء آل الحسيني في حركة توازن بين آل الحسيني وخصومهم آل النشاشيبي تتفق مع السياسة الاستعمارية التقليدية المعترف بها .."[314].

كان الصراع قائمًا على السلطات السياسية، والدينية، والاجتماعية، بين عائلتي الحسيني بزعامة الحاج أمين الحسيني الذي كان مفتيًا على كامل فلسطين وعائلة النشاشيبي التي كان يقودها راغب النشاشيبي، وكان آنذاك رئيسًا لبلدية القدس، الأمر الذي أضعف من كل رغبة للوحدة الوطنية لمقاومة المد الصهيوني، والاحتلال الإنجليزي آنذاك:

"وبدأ آل الحسيني باتخاذ الإجراءات الاحترازية للاحتفاظ بسيطرتهم على أكبر منصبين إسلاميين في فلسطين؛ وهما منصب الإفتاء، ومنصب رئاسة المجلس الإسلامي الأعلى، وذلك في حالة توجيه الاحتجاجات ضد جمع الحاج أمين الحسيني بين المنصبين.."[315]. "وكان رئيس بلدية القدس (راغب النشاشيبي) وثلاثة موظفين وبضعة أفراد من شيوخ البلاد هم الوحيدين الذين امتنعوا عن التقيد بقرار مقاطعة بلفور

---

[314] عبد الوهاب الكيالي، تاريخ فلسطين الحديث، ص145

[315] عبد الوهاب الكيالي، تاريخ فلسطين الحديث، ص190.

وحضروا مهرجان تدشين الجامعة العبرية.."[316]. "وكان الميدان الأكبر للانقسام هو الصراع من أجل السيطرة على المجلس الإسلامي الأعلى بين آل الحسيني وآل النشاشيبي.."[317]. "تم تأسيس حزب الدفاع الوطني من قبل عائلة النشاشيبي المنافسة لعائلة الحسيني التي كانت تمسك بمقاليد الزعامة القائمة في فلسطين. (فمن عائلة الحسيني كان موسى كاظم الذي ترأس في عام 1922 الوفد العربي إلى لندن، والحاج أمين مفتي القدس الذي كان شخصية مركزية في اضطرابات عام 1929، وفي عام 1936 أصبح الحاج أمين الزعيم الأقوى والأكثر شعبية في فلسطين)"[318].

وظفت الكاتبة هذا الصراع في نسج روايتها، بل إنها اعتمدت عليه اعتمادًا أساسيًا بحيث جعلت منه مادة تاريخية استندت عليها في بناء حبكتها الروائية، وقد مثَّلت تلك الأحداث كل لبنة من لبنات الرواية وتداخلت في مبناها بشكل عضوي، فاستمدت الحوار من بين صفحات التاريخ، وجسدت الصراع دون أن تشير إليه، معتمدة على الرمز

([316]) عبد الوهاب الكيالي، م.س.، ص193.

([317]) عبد الوهاب الكيالي، م.س.، ص195.

([318]) واصف عبوشي، فلسطين قبل الضياع، ص131.

obeikandl.com

والمواربة، إلا أن قارئ التاريخ، ومن يعيشه، يستطيع لمس ما يجول في خاطر الكاتبة، فهي ترسم سيرة الزمان وتتجول في دهاليز المكان، لنعانق تراثه التاريخي وعبقه الممتد جيلاً بعد جيل لكي لا ننسى ما حلَّ بفلسطين، ولكي نتحسس مستقبلاً آتيًا، وكأن لسان حالها يقول إن تلك الخلافات قد أضعفت المقاومة الشعبية للمد الصهيوني، الذي كان ينهب الأرض الفلسطينية بدون مقاومة يُحسب حسابها، وأظنها أصابت فيما ترمي إليه، وها نحن نعاني، جيلاً بعد جيل، من أثر الانشقاقات والتشرذمات والفرقة، فالسلاح الذي يسعد أعداءنا كثيرًا، هو فرقتنا؛ لأن العدو هو الوحيد الذي يستفيد من تلك التشرذمات...

فالحدث التاريخي يشكل محورًا للاستناد إليه بقولها: "وصلت الباخرة ميناء حيفا.. ورجع عياش إلى أرض الوطن ليواجه الأحداث والمتغيرات.. فقد مضى عصر الأتراك بخيره وشره.. وجاء عصر الانتداب البريطاني على فلسطين"[319]، فحددت زمن الرواية، وهو الزمن الذي أعقب انتهاء الخلافة العثمانية، وبداية السيطرة الإنجليزية على فلسطين.

---

[319] ديمة السمان، الضلع المفقود، ص103.

كما إنها تشير إلى أهمية مدينة حيفا وميناءها، حيث كانت مركزًا مهما وميناءً يصل فلسطين بالعالم الخارجي، هذا الميناء الذي أنشأه العثمانيون عام 1908م([320]).

تطرقت الكاتبة في سردها إلى ذكر وعد بلفور المشؤوم، عندما قالت: "والأمل أكبر وبخاصة بعد التحركات التي قامت بها المقاومة الفلسطينية على الصعيد المحلي والدولي بعد إعلان وعد بلفور.. الذي جعل من الأرض الفلسطينية وطناً قومياً لليهود.."([321]).

ورد نص وعد بلفور في كتب التاريخ المعاصر([322]).

استخدمت هذا التوظيف لتبين الدور السياسي الذي كان (عياش) يقوم به في تلك الأثناء، و(عياش) هنا يمثل إحدى الشخصيات السياسية المهمة في ذلك الوقت، وهو الذي تزعم مدينة القدس، وشارك في مقاومة العصابات الصهيونية، وكان ممثلاً عن الشعب في المحافل الدولية، وله وزنه الشعبي والسياسي عند الإنجليز.

([320]) ينظر: مصطفى الدباغ، بلادنا فلسطين، 7/ 524.

([321]) ديمة السمان، م.س.، ص193؛ تكرر في برج اللقلق، 1/ 175.

([322]) ينظر: بيان الحوت، فلسطين القضية الشعب الحضارة، ص457؛ مصطفى الدباغ، بلادنا فلسطين، 8/ 30-31؛ أحمد العلمي، حرب عام 1948، ص56.

obeikandl.com

مرَّت الكاتبة على ذكر الدور المشبوه الذي قامت به بريطانيا، من خديعة العرب الذين حاربوا مع الإنجليز في الحرب العالمية الأولى ضد العثمانيين، فقد ذكر (اللورد كرادون)، الذي أمضى خمسة عشر عامًا موظفًا بريطانيًّا في فلسطين والشرق الأوسط؛ يقول في مذكراته: "إن فشل الإدارة البريطانية في فلسطين كان حتميًا، الخطيئة المزدوجة نفذت في رفع الآمال الكاذبة للعرب واليهود معًا، الآمال كانت كاذبة لأنها متعارضة، العرب الذين حاربوا مع بريطانيا العظمى في الحرب العالمية الأولى لإلغاء قيد الإمبراطورية العثمانية قيدوا للاعتقاد أنهم يحاربون من أجل حريتهم. والمسؤولية الرئيسية هي منَّا بالمراوغة والمماطلة وبالأساس بعدم الأمانة لتعاملاتنا المزدوجة فقد جعلنا من الكارثة مؤكدة. في عام 1915 أيدنا ثورة الصحراء للملك فيصل، في 1917 وقعنا إعلان بلفور"([323]).

كما نلاحظ، فإن توظيف الكاتبة لهذا الحدث التاريخي، الذي شكل منعطفا مهمًّا على الساحة السياسية الفلسطينية، جاء كركيزة من ركائز

([323]) إيلي قدري، في المتاهة العربية- الإنجليزية، مراسلات الحسين مكماهون وتفسيراتها 1914-1939، القدس: جامعة القدس، 2002. ص351.

روايتها، لكن التوظيف جاء بطريقة تقريرية صحافية محضة، وليس بأسلوب الرواية الفني.

وظفت الكاتبة أحداثًا تاريخية فلسطينية ما زالت تتمحور في ذاكرة الشعب الفلسطيني؛ قالت: "معركة ضارية في منطقة باب الواد بين مدينة القدس ومدينة يافا.."([324]).

تشير الكاتبة إلى شدة المقاومة الوطنية([325])، إبان الزحف الصهيوني على الأراضي والمدن الفلسطينية، وبينت لنا مدى القلق الشعبي من هذا الزحف الذي يبتلع الأراضي العربية يومًا بعد يوم، وقد سقط كثير من الشهداء وهم يدافعون عن كرامة هذا الشعب.

كما وظفت أحداثًا تاريخية مرت على شعبنا الفلسطيني عندما قالت على لسان(الراوي): "وكانت المقاومة في أوجها حين بدأ إضراب الستة أشهر سنة 1936"([326]).

ورد هذا الحدث في (تاريخ فلسطين الحديث): "وفي غضون الاشتباكات التي وقعت في التاسع عشر من نيسان أصيب عشرات

([324]) ديمة السمان، الضلع المفقود، ص220؛ تكرر في الضلع المفقود، ص272.

([325]) ينظر: أحمد المرعشلي، الموسوعة الفلسطينية، 1/ 341.

([326]) ديمة السمان، الضلع المفقود، ص269؛ تكرر في جناح ضاقت به السماء، ص155؛ وتكرر في برج اللقلق، 1/ 183.

العرب بجروح وأحرق الكثير من المنازل العربية. أما رد الفعل لهذه الحوادث فقد كان عفويًّا عنيفًا في جميع مناطق البلاد. وفي العشرين من نيسان شكلت في نابلس لجنة قومية عربية قررت إعلان الإضراب العام في البلاد كلها على أن يستمر الإضراب إلى أن تعلن الحكومة موافقتها على المطالب التي قدمت إليها في شهر تشرين الأول السابق."([327]). لقد وظفت الكاتبة هذا التوظيف في نصها الروائي لدرجة أنني خلتها تكتب سردًا تاريخيًّا يبتعد كل البعد عن الفن الروائي، فهو تأريخ لمرحلة من مراحل التاريخ الفلسطيني، خصوصًا وأنها تصف لنا حالة المقاومة وصفًا دقيقًا استمدته من ثنايا التاريخ.

وتستمر الكاتبة في توظيفها التاريخي للأحداث التي مرت على الشعب الفلسطيني عندما تقول على لسان (الرواي) أيضًا: "وتسلطت عليهم بأحكام جائرة تصل حد الإعدام لمن كان في حوزته أخف أنواع السلاح، وضيقت الخناق على المؤسسات الوطنية واحتلتها من قبل قواتها العسكرية"([328]).

([327]) عبد الوهاب الكيالي، تاريخ فلسطين الحديث، ص 263.

([328]) ديمة السمان، الضلع المفقود، ص272.

وردت هذه الأحداث في كتب التاريخ، ومنها ما ورد في (تاريخ فلسطين الحديث): "وقدم للمحاكمة ما يزيد على (1000) نسمة- 90 في المائة منهم من العرب- بتهم تتعلق بإضرابات شهر آب 1929. وصدر الحكم في مراحل المحاكمة النهائية بإعدام 26 شخصا"([329]).

وظفت الكاتبة هذه الأحداث التاريخية بشكل غير منسجم مع الأسلوب الروائي، فجاء سردًا تاريخيًّا أكثر منه روائيًّا.

وتُطلعنا الكاتبة على الحالة البائسة التي وصل إليها بالشعب الفلسطيني، الذي صار الصهاينة يتسربون إلى أراضيه وبمعاونة جادة وملتزمة من حكومة بريطانيا، حين قالت على لسان (الراوي): "نتج عنه الكتاب الأبيض الذي تحدث عن بعض حقوق ملكية الفلسطينيين في بعض الأجزاء من وطنهم وتحديد عدد المهاجرين اليهود إلى فلسطين."([330]).

ورد عن هذا الكتاب في (فلسطين ومؤتمر القمة العربي): "لقد تعودت السياسة البريطانية في فلسطين أن تصدر بين وقت وآخر كتابًا أبيض تشرح فيه سياستها المقبلة، ففي "حزيران" 1922 صدر الكتاب

([329]) عبد الوهاب الكيالي، تاريخ فلسطين الحديث، ص206.

([330]) ديمة السمان، م.س.، ص279.

الأبيض الأول بعد فشل مفاوضات لندن بين الفلسطينيين والحكومة البريطانية بشأن الاتفاق على دستور لفلسطين وتأسيس حكم وطني في البلاد، وهو وثيقة خطيرة توضح نوايا بريطانيا العدائية نحو عرب فلسطين وتصميمها على إقامة الوطن القومي اليهودي، وفي أكتوبر "ت1" 1930 ونتيجة لقراري شو وسمبسون أصدرت الحكومة البريطانية كتابًا أبيض آخر اعترفت فيه بأن فلسطين لا تتسع لمهاجرين جدد."([331]).

جاء التوظيف هنا منسجمًا مع السرد التاريخي الذي نجده بكثرة على صفحات الكتب التاريخية، لكن الأسلوب التقريري المباشر قد أذهب بإبداع الكاتبة.

وظفت الكاتبة أحداثًا تاريخية شكلت منعطفًا مهمًّا على فلسطين وشعبها؛ عندما قالت على لسان (عياش): "فالحكومة البريطانية نصّبت نفسها اليوم وصية على فلسطين.."([332]).

في هذا النص إشارة واضحة إلى زمن الرواية، وهو الزمن الذي عُيِّن فيه أول مندوب سام على فلسطين، في شهر تموز للعام ألفٍ وتسع مائة

([331]) صلاح الدين شكري، فلسطين ومؤتمر القمة العربي، ص32.

([332]) ديمة السمان، الضلع المفقود، ص129. وقد تكرر هذا التوظيف في رواية القافلة ص117.

وعشرين، وهو اليهودي هربرت صموئيل: "لم تكن هناك مشكلة بالنسبة للبريطانيين في قمع أحداث الشغب في نيسان (إبريل) 1920، وفي تموز (يوليو) من العام نفسه تم استبدال الإدارة العسكرية بأخرى مدنية يرأسها مندوب سام."([333]).

كما نلاحظ أنَّ توظيف هذه المعلومات التاريخية جاء مكثفًا، اتكأت الكاتبة إليها في نسج روايتها، فسردت التاريخ بكل آلامه، ووظفت أحداثه بما تحمله من شرور توجع القلب عند قراءتها، فجاء توظيفها موفقًا، لكنه حوّل بوصلة الرواية الفنية باتجاه الرواية التاريخية التي تعتمد على السرد المباشر.

لقد وضعتنا الكاتبة في صورة الوضع الذي كان قائمًا إبَّان الفترة الزمنية التي تدور فيها أحداث الرواية، وهي فترة الانتداب الإنجليزي على فلسطين، ودور الإنجليز في خدمة المشروع الصهيوني.

مرت الكاتبة على ذكر ثورة (36)، عندما قالت: "ثورة 36"([334])؛ "ظهرت أول علائم الثورة في تشرين الثاني (نوفمبر) عام 1935، عندما شنَّ القسَّام مع مجموعة من المسلحين أول هجوم مُنظم ضد الجنود

([333]) واصف عبوشي، فلسطين قبل الضياع، ص35.

([334]) ديمة السمّان، القافلة، ص117.

البريطانيين منذ بداية الانتداب، وجاءت هذه المعركة بعد اكتشاف البريطانيين لكميات كبيرة من الأسلحة في يافا يعتقد بأنها تهرب لليهود من بلجيكا، فعممت الصحافة العربية هذه الحادثة، ودعا القادة العرب إلى إضراب ليوم واحد فأُصيبت البلاد بالشلل، ولم يكن هناك شك من أن الناس قد استجابوا لأمر قادتهم.([335]).

وظفت هذا التاريخ لما له من أهمية في مسيرة الشعب الفلسطيني النضالية منذ ذلك الزمن، فاستخدمت التوظيف هذا لخدمة نصها الروائي الذي كان مبنيًّا على الأحداث التاريخية في تلك الفترة، وجاء توظيفها مفيدًا للسرد الروائي، على الرغم من اعتمادها على الأسلوب التقريري المباشر.

ذكرت المعارك التي دارت بين اليهود والعرب بقولها: "بدأت المعارك بين العرب واليهود في يافا وتل أبيب والمستعمرات اليهودية المجاورة منذ الأسبوع الأول للإعلان عن قرار تقسيم فلسطين.."([336])، فقد أعطى قرار التقسيم اليهود غالبية الأراضي الجيدة من فلسطين، وأعطاهم أيضًا أهم المدن الفلسطينية وخصوصًا القدس ويافا، ولذلك كان محتمًا على

([335]) واصف عبوشي، فلسطين قبل الضياع، ص153.

([336]) ديمة السمان، م.س.، ص202.

شعب فلسطين بكل أطيافه وشرائحه رفض هذا القرار ومحاربته: "وافق سبعة أعضاء في آنسكوب على مبدأ التقسيم كأساس لحل المسألة الفلسطينية، وأوصى مشروع هؤلاء بتقسيم فلسطين إلى دولتين منفصلتين، عربية ويهودية، كان الهدف الأساسي للمشروع هو إيجاد تقسيم سياسي مع إقامة وحدة اقتصادية. فبالرغم من أن المشروع كان يدعو إلى إقامة دولتين مستقلتين في فلسطين، إلا أنه كان في الوقت ذاته يتطلب إيجاد اقتصاد تكاملي وموحد. أما بالنسبة لحدود الدولتين فإن (الدولة العربية المقترحة ستضم الجليل الغربي، ومنطقة يهودا والسامرة الجبلية باستثناء مدينة القدس، والسهل الساحلي من أشدود إلى الحدود المصرية، وستضم الدولة اليهودية المقترحة الجليل الشرقي، وسهل مرج ابن عامر، ومعظم السهل الساحلي، وجميع قضاء بئر السبع، الذي يضم النقب)"([337]). وظفت الكاتبة هذا الحدث التاريخي في سياق سردها الروائي لتحوله إلى سرد تاريخي بجدارة، فابتعدت فيه عن الإبداع الروائي الفني لتصبح روايتها هنا درسًا تاريخيًّا لا أكثر.

وعندما قالت على لسان (الراوي): "جاءت أخبار الشؤم تحمل سقوط قرية دير ياسين وكان يسبق الاحتلال أخبار القتل والسلب

([337]) واصف عبوشي، فلسطين قبل الضياع، ص366-367.

والنهب والتشويه والتمثيل وانتهاك الأعراض"(338)، فإنها توظف حدثًا شكل في تلك الفترة تحولاً استراتيجيًّا في مصير الشعب الفلسطيني ونتج عنه تشريد مئات الآلاف: "كان اليوم يوم جمعة، 9 نيسان/ أبريل 1948، ولم يكن فجره قد انبلج حين انقضت فجأة، وبمعرفة قيادة الهاجاناة، التابعة للوكالة اليهودية، قوات منظمتي شتيرن (ليحي) والإرغون (إيتسل) الإرهابيتين على قرية مواجهة للضواحي اليهودية الغربية للقدس، على بعد أقل من خمسة كيلو مترات من مقر حكومة الانتداب البريطانية السياسي والعسكري في عاصمة فلسطين، احتلت القرية واستشهد من سكانها (البالغ عددهم 750 نسمة تقريبًا) مئة شخص ونيف، معظمهم من الشيوخ والنساء والأطفال، وهُجر الناجون كافة ليدخلوا في شتات لا نهاية له يحملون فيه إلى يوم الدين جروحًا نفسية لا تندمل."(339)

وظفت الكاتبة هذا الحدث توظيفًا حوَّل الرواية إلى سرد يحمل بين طيَّاته التاريخ الفلسطيني في زمن النكبة، والتي لا يمكن لأي فلسطيني أن يتحدث عن تلك الحقبة من الزمن دون المرور على ذكر أحداثها، وما

(338) ديمة السمان، القافلة، ص202؛ تكرر في برج اللقلق، 1/ 188.

(339) وليد الخالدي، دير ياسين، ص3؛ ينظر: وليد الخالدي، كي لا ننسى، ص618– 622

تركته من معاناة لكل فلسطيني، والحدث الذي وظِّف هنا طغى بثقله على سلاسة السرد الفني، ونزعه من عالمه الرومانسي، وحطَّ به في حضن التاريخ بكل آلامه ونزواته، فمن الناحية الفنية، فإن الكاتبة قد أخفقت في بناء انسجام بين التوظيف التاريخي وبين السرد الفني الروائي. إلا إنها عندما قالت: "فكانت حرب نفسية ناجحة أفرغت البلاد من أهلها"(340)، فإن الكاتبة قد أشارت إلى قضية مهمة يتجلى فيها عمق الحدث وتأثيراته على أهل فلسطين آنذاك، عندما استغل الصهيوني معركة دير ياسين وأشاع بأنه ارتكب المجازر، وبأنه "دُفع" لقتل الأبرياء الذين كما يدَّعي بتواجدهم في وسط خط النار، فمجرد سماع هذه الأخبار جعل الناس يتركون بيوتهم، وقراهم، ويخرجون من البلاد، لتصبح لقمة سائغة للصهاينة الغاصبين، وليصبح شعب فلسطين، لاجئين يعيشون آلام القهر والغربة(341).

وظفت الكاتبة الواقع الفلسطيني عندما أسقطته على أحداث روايتها قائلة: "هؤلاء بالذات طبقة الأمراء والتجار والأغنياء هم سبب اختلال

---

(340) ديمة السمان، القافلة، ص202.

(341) ينظر: وليد الخالدي، دير ياسين، ص85-98.

نظام العدالة في الكون.. حصروا الأموال في أيديهم.. واستعبدوا العباد.. وأشاعوا في الأرض الفساد.. وكأن الدنيا خُلقت لهم وحدهم.."[342].

استمدت الكاتبة هذا الكلام من الواقع الذي يعيشه شعبنا الفلسطيني، في ظل سوء استخدام السلطة عند بعض المتنفذين، الذين خانوا الأمانة، ونشروا الفساد، فضاعت العباد، وتكونت فجوة كبيرة بين القيادة والشعب، فقد عوقب الضعيف إذا ما أخطأ، وكوفئ القوي إذا ما أجرم؛ قالت الكاتبة: "كان أبي عاملاً متخصصًا برعاية الكلاب عند أحد الأغنياء.. ضبطه ذات يوم يسرق من طعام الكلاب من أجل أن يطعمنا نحن الأطفال.. فقد كان أجره لا يكفينا خبزًا.. فطرده."[343].

وهنا فإن الكاتبة قد استخدمت الأسلوب الرمزي في كتابتها، وقد أجادت بهذا الاستخدام، وهذا الأسلوب، الأمر الذي أضفى على النص عمقا موضوعيا يحمل بين ثناياه فكرة تعبر فيها عن معاناة الإنسان الفلسطيني الذي صار بين مطرقة الاحتلال وسندان المفسدين"[344].

([342]) ديمة السمان، الأصابع الخفية، ص26.

([343]) ديمة السمان، م.ن.، ص26.

([344]) ينظر: أ. د. محمد اسحق الريفي،

http://thawabitarabiya.com/old_site/modules.php?name=News&file=article&sid=458

تستمر الكاتبة في توظيف الواقع، بكل أطيافه، عندما تقول: "إن حبّات اللؤلؤ أيها الزعيم مصنوعة من حبات عرق " الغلابا" والمساكين قبل أن تكون فائض إفرازات محار البحر.. إنهم يأمرون بالمعروف ويفعلون فعل الشياطين.."([345]).

وظفت الكاتبة الأحداث التاريخية والتي شكلت منعطفا حادا في حياة الشعب الفلسطيني بقولها: "كنا عشرة .. شكلتنا هزيمة 1967"([346]).

"في صباح يوم الاثنين، الخامس من حزيران، في الساعة الثامنة إلا ربعًا، وجهت الضربة الأولى لسلاح الطيران المصري، وشملت عشرة مطارات، منهم تسعة قصفت في وقت واحد، أما العاشر وهو مطار فايد، فقد قُصف بعد دقائق قليلة بسبب الضباب الذي كان يلفه، وقد دمر القسم الأعظم من سلاح الطيران المصري."([347]).

وظفت الكاتبة هذه الأحداث لتقول لنا بأن هموم الشباب بعد (هزيمة حزيران) وهو زمن كتابة الرواية، كان منصبًّا على إيجاد الوسائل للتنفيس عن غضبهم، فقد أدت حرب حزيران 1967، وما تمخض

([345]) ديمة السمان، م.س.، ص27.

([346]) ديمة السمان، جناح ضاقت به السماء، ص13؛ تكرر في جناح ضاقت به السماء، ص63؛ وتكرر في جناح ضاقت به السماء، ص142؛ تكرر في برج اللقلق، 2/ 27.

([347]) تشرشل الابن والحفيد، حرب حزيران 1967.

عنها، من نتائج سلبية إلى خيبة أمل كبيرة[348]، ظلت تحفر عميقًا في وجدان أبناء الأمة العربية، ولاسيما المثقفون الذين أدركوا أن الهزيمة لم تكن عسكرية فحسب، بل كانت هزيمة حضارية أيضًا، وأن محو آثار الهزيمة، والنهوض من جديد، يتطلبان إعادة التفكير في البنى الفكرية، والاجتماعية، والسياسية، والاقتصادية، والثقافية للمجتمع، كما أدرك الشباب العربي أهمية مساءلة الذات من خلال مساءلة الماضي، والوقوف على الخصائص المميزة، والهوية الخاصة، عن طريق مقاومة الاحتلال، ومراجعة الحسابات بمنهجنا الحياتي عمومًا، والعلمي خصوصًا، وهو موضوع شغل بال الكاتبة فاستندت عليه في بناء صرح روايتها (جناح ضاقت به السماء). أما خطابها الروائي هنا، فقد جاء مباشرًا، شعرت كأنني أمام خطيب يلقي بكلامه أمام مجموعة من الناس، وليس كلامًا منسوجًا بعناية فنية، فهو أشبه بحكاية ترويها الجدة لحفيدها.

وظفت الكاتبة أحداث الانتفاضة الفلسطينية المباركة، والتي بدأت كهبة شعبية متنامية في السادس من كانون أول من العام (1987)،

---

(348) ينظر: محمد أيوب، الشخصية في الرواية الفلسطينية المعاصرة في الضفة الغربية وقطاع غزة، ط1، القدس: منشورات إتحاد الكتاب، 1997. ص 66.

وشاركت فيها جميع شرائح الشعب الفلسطيني من طلبة، وعمال، وتجار، ومزارعين، وشباب، ونساء، ورجال، وشيوخ، واستخدم الشعب الفلسطيني الحجر، والإطارات المطاطية المشتعلة، في مواجهة آلة القمع الصهيونية، فاعتقل الكثيرون، واستشهد الكثيرون، وأصيبتْ أعداد هائلة من الشعب بإصابات كانت في معظمها خطيرة، وقد وظفت الكاتبة هذه الأحداث عندما قالت على لسان (نفوذ): "السجون مليئة بالشباب.. والقبور مليئة بالشهداء.. فأمام الشباب يا عزيزي قضية.. لا ينفع فيها الكلام.. ما دام العدو ينفذ مخططاته.. ويذيقهم أصناف العذاب.."([349]).

وعندما قالت على لسان المحقق الصهيوني: "أنت هنا من أجل أن تحدثنا عن الأحداث الأخيرة التي حصلت في مدرستك.."([350]).

وعندما قالت: "يوم إصدار بيان جديد.. تكون الأرض مليئة بالبيانات.. معلقة على الجدران والأعمدة والأشجار"([351]).

([349]) ديمة السمان، جناح ضاقت به السماء، ص210.

([350]) ديمة السمان، م.ن.، ص217.

([351]) ديمة السمان، م.ن.، ص218.

obeikandl.com

كما نلاحظ، فإن الكاتبة تصف الحالة التي كانت سائدة إبّان تلك الأحداث، وتعتمد عليها في نسج روايتها بشكل كبير، فهي تذكر حالة المعتقلين والشهداء وأساليب التحقيق، وأظنها أجادت في رصد تلك الأحداث التي عايشتها الكاتبة بنفسها، ومَن من أهل فلسطين لم يعايش تلك الأحداث آنذاك؟! فقد كانت الانتفاضة هبَّةً جماهيرية عارمة لرفض الظلم والقمع والقتل الممنهج للإرادة الشعبية الفلسطينية، وقد أنهت الكاتبة رواية (جناح ضاقت به السماء) بتسجيل تلك الأحداث التي تركت أثرًا واضحا على الساحة الفلسطينية، والتي أدت في النهاية إلى ما يسمى بـ (اتفاقات أوسلو) بين قيادة منظمة التحرير الفلسطينية والإسرائيليين.

نقلت لنا الكاتبة الصورة التي كانت عليها الخريطة الفلسطينية أثناء المرحلة المصيرية لفلسطين العام 1948، عندما دخلت الجيوش العربية الأراضي الفلسطينية للدفاع عنها أمام الهجمات المستمرة للمستعمرين اليهود عندما قالت على لسان (الراوي): "أرسلت دولة العراق جيوشها لتكون مسئولة عن شمال فلسطين فتمركزوا في جنين وضواحيها"([352]). ورد هذا التضمين كما هو في (فلسطين تاريخها وقضيتها): "واستطاع

([352]) ديمة السمان، برج اللقلق، 2/ 3.

الجيش العراقي أن يتخطى بلدة طولكرم في اتجاهه غربًا، كما صد هجومًا إسرائيليًّا على بلدة جنين"([353]). وقد قررت البلاد العربية إرسال جيوشها إلى فلسطين بعد انتهاء الانتداب البريطاني عليها في 14/ 15 أيار 1948([354]). لقد استندت الكاتبة إلى المعلومات التاريخية في سردها التاريخي، فنقلت لنا أحداثه، وأطلعتنا على رَدِّ فعل الناس العاديين على تلك الأحداث آنذاك وكأننا نقف أمام راوٍ عاش أحداث الماضي ليذكرها لنا بعفوية شاهد العيان الذي يحاول جاهدًا تذكّر أدق التفاصيل ليجلب الانتباه لكل ما يقول علنًا، وعسانا نستفيد من عبر الماضي.

توظيف الأسطورة

استخدمت الكاتبة الأسطورة الشعبية بقولها: "والبومة والغراب يتشاءم منهما العرب.."([355]). فهي تقتحم بهذا القول المعتقد العربي في صميمه، عندما تخالفهم في معتقدهم، فإنه على العكس مما تعتقدون، إنه

([353]) مؤسسة الدراسات الفلسطينية، فلسطين تاريخها وقضيتها، ص164.

([354]) ينظر: مؤسسة الدراسات الفلسطينية، فلسطين تاريخها وقضيتها، ص158-159.

([355]) الضلع المفقود، ديمة السمان، ص12؛ تكرر في برج اللقلق، 1/ 27.

obeikandl.com

مفيد في حياته ومماته، ففي حياته يخلص المزارع من القوارض الضارة بمزروعاته، وفي مماته يؤخذ من دمه فيصنع دواءً شافيًا لأمراض كثيرة.

ورد أن البوم طائر شؤم في الأمثال، وفي النصوص النثرية والشعرية، أما في الأمثال فقد قيل: جاء في محاضر الأدباء للأصبهاني "البوم موصوف بالشؤم، وقيل لصياد معه بومتان كبيرة وصغيرة: بكم؟ فقال: الكبيرة بدرهم والصغيرة بدرهمين، قيل له ولم ذلك؟ فقال: لأن شؤمه في إقبال."([356]).

أما ما ورد من الأشعار، فمنها ما جاء في قصيدة امرئ القيس إذ قال:([357])

أيا هندُ لا تَنْكِحي بوهةً عَلَيْهِ عَقيقَتهُ، أحسَبَا

وقال ذو الأصبع العدواني:([358])

يا عمرو إن لم تدَع شتمي ومنقصتي

أضرِبكَ حتى تقول الهامةُ اسقوني

وقال سويد بن أبي كاهل اليشكري:([359])

([356]) محاضر الأدباء، الأصبهاني 4/ 979.

([357]) امرؤ القيس، الديوان ص398.

([358])المفضل الضبي، المفضليات، 160

بئس ما يجمع أن يغتابَني مَطعَمٌ وخمٌ وداءٌ يُدَّرَع
لم يَضِرني غيرَ أن يحسُدَني فهو يزقو مثلَ ما يزقو الضُّوَع

خالف رأي كاتبتنا تلك المعتقدات، واعتبرت بأن لا أساس لها من الصحة، حيث أن شعوب العالم الأخرى تجد في البوم مصدر تفاؤل ([360]).

يقول الجاحظ: "والبوم عند أهل الرَّي وأهل مروٍ يُتفاءل به"([361]).

فقد قالت: "وهذه السيدة الهندية غريبة الديار وغريبة الأطوار مريبة الأفعال.. تحدث عكس ما حدثت عنه العرب.. فما تشاءموا منه تفاءلت به .. وما استقبحوه استحسنته.."([362]).

وهنا فإن توظيف الكاتبة لهذه المعتقدات ورفضها له يعتبر في رأيي توظيفًا موفقًا خصوصًا وإن الحدث الروائي يتطلب مثل هذا التوظيف الذي يخدم النص ويثريه بشكل كبير.

وقد ورد عن الغربان في نثر العرب وشعرهم، ومنه ما قاله حسان بن ثابت في هجاء الحارث بن هشام بن المغيرة:([363])

([359]) المفضل الضبي، المفضليات، 198

([360]) ينظر: سيمون عوض، طيور فلسطين، ص109.

([361]) عمر بن بحر الجاحظ (250هـ)، كتاب الحيوان، وضع حواشيه محمد باسل عيون السود،ط2، بيروت: دار الكتب العلمية، 1424هـ/ 2002م، 2/ 218.

([362]) الضلع المفقود، ديمة السمان، ص16.

أجمعتُ أنّك أنتَ ألأمُ من مشى

في فحشِ مومسةٍ وَزؤكِ غُرابِ([364])

أما الغراب فقد عُرف عنه بأنه طائر شؤم، فهو بشع الشكل ومشيه غريب وصوته مزعج، وقد ذكر في القرآن الكريم، وفي الحديث النبوي الشريف، وفي الأمثال العربية...([365]).

وذكر في (عيون الأخبار): "خرج كثير عزّة إلى مصر يريد عزة، فلقيه أعرابي من نهد فقال: يا أبا صخر، أين تريد؟ فقال: أريد عزة بمصر. قال: فهل رأيت شيئًا؟ قال: لا، إلا أني رأيت غرابًا ساقطًا فوق بانة ينتف ريشه. فقال له: توافي مصر وقد ماتت عزة. فانتهره كثير ثم مضى فوافى مصر والناس ينصرفون عن جنازة عزة، فقال:([366])

فما أعيف النّهديّ لا درّ درّه وأزجره للطير لا عزّ ناصره

رأيت غرابًا ساقطًا فوق بانة ينتّف أعلى ريشه ويطايره

فأما غراب فاغتراب ووحشة وبانٌ فبين من حبيب تعاشره

([363]) حسان بن ثابت، شرح ديوان حسنان بن ثابت الأنصاري، 73؛ شاكر هادي، الحيوان في الأدب العربي، 3/ 22.

([364]) زؤك: المشي بفزع، ينظر: ابن منظور، لسان العرب، باب زأد.

([365]) ينظر: شاكر هادي، الحيوان في الأدب العربي، 3/ 15-16.

([366]) ابن قتيبة، عيون الأخبار، 1/ 174.

وقد جاء توظيف الكاتبة ناجحًا قرب أفكارها من فهم القارئ.

كما تطرقت الكاتبة إلى مفهوم الشعوذة والمشعوذين، وإنها تدعو للسخرية منهم عندما طلبت (مريم) الفتاة المدللة ابنة (المهراجا) من أبيها إحضار طبيب فلاح لمداواتها وهي تعلم بأنه جد حبيبها (عيّاش): "أي أبتي إنني سمعت عن طبيب فلاح يقال أنه ماهر شاف.."([367]).

هي تعرف حالتها، إنها ليست مريضة مرضًا عضويًّا، إنما تريد من جد عياش إحضار حبيبها الذي بيده الشفاء، لا بيد غيره، ولكن والدها لا يعرف ذلك؛ فيجيبها مستغربًا: "أتريدين أن يقال عنا بأننا أسرة تؤمن بالخرافة والشعوذة؟"([368]). ينزل الوالد عند رغبة ابنته رغمًا عنه، أي أن الكاتبة تثير قضية حساسة، وهي إيمان بعض الناس بالشعوذة، نجدها قد استخدمت أسلوبًا مناسبًا في طرح هذه الفكرة، لتنجح بإقناع القارئ برفض الشعوذة، والمشعوذين.

استخدمت الأسطورة التاريخية التي تتحدث عن "آلهة الحب" بقولها: "إليّ بأجنحة إله الحب"([369]).

([367]) ديمة السمان، الضلع المفقود، ص61.

([368]) ديمة السمان، الضلع المفقود، ص61.

([369]) ديمة السمان، م.ن.، ص242.

وقد وردت أسماء لـ"آلهة الحب" في العديد من الأساطير التاريخية عند الفينيقيين، والرومان، والبابليين، والإغريق، وغيرهم من الشعوب القديمة، فقد كان إله الحب والخصب عند الفينيقيين يسمى"أستار"([370])، وكان إله الموسيقى والحب يسمى عند المصريين القدماء"بيس"([371])، وكان إله الحب عند البابليين يسمى "عشتار"([372])، وكانت آلهة الحب والجمال عند الرومان تسمى"فينوس"([373])، و"إينانا" عند السومريين هي آلهة الخصب والعشق، وهي رمزٌ للأنثى الولود ([374]).

أرادت الكاتبة من خلال هذا التوظيف الإعراب عن حالة العشق التي وصلتها (مريم)، لدرجة أن الحب قد حل مكان البغض والحقد والغيرة، لتخبرنا بأن السلام لا بد أن يسود بدل الحروب والأحقاد، وقد أجادت الكاتبة بهذا التوظيف.

([370]) حسين حمد، قاموس المذاهب والأديان، ص251.

([371]) حسين حمد، م.ن، ص253.

([372]) حسين حمد، م.ن.، ص259.

([373]) حسين حمد، م.ن.، ص259.

([374])ينظر: سيد القمني، الأسطورة والتراث، ط3، القاهرة: المركز المصري لبحوث الحضارة، 1999. ص115.

obeikandl.com

وظفت الكاتبة الأسطورة التي تقول إن الصحارى هي مكان سكنى الجان عندما قالت على لسان (ريحانة) زوجة (حمدان): "هل الأمر يتعلق بأهل الخفاء من إخوتنا الجان باسم الله..؟؟ هل حقًّا أن الصحارى مكان سكنى الجان اختاروها للهدوء وسعة المكان والبعد عن الإنسان.."([375]).

وقد ورد هذا المعنى في قصص العرب، بل إن العرب كانوا يعتقدون بأن الشعراء لا يقولون الشعر بأنفسهم، وإنما كان لكل شاعر شيطان من الجن هو الذي يملي عليه ما يقول، فقد ذكر القرشي: "قلت له من أشعر العرب؟ قال: أرِ قول لافظ بن لاحظ، وهنات، وهبيد، وهادر ابن ماهر. قلت: هذه أسماء لا أعرفها. قال: أجل! أما لافظ فصاحب امرئ القيس، وأما هبيد فصاحب عَبيد بن الأبرص وبشر، وأما هادر فصاحب زياد الذبياني؛ وهو الذي استنبغه، فسمي النابغة"([376]).

تبين الكاتبة في هذا التوظيف الخوف الذي كان يعتري (حمدان) من الرجوع للعمل في الصحراء مع القوافل فقد تتنوع المخاطر في الصحراء، ولأن تلك المخاطر لا يعرفون لها مصدرًا، فإن الناس يعزونها إلى الجان، ولقد وظفت الخرافة والأسطورة توظيفًا حسنًا أفاد النص وارتقى به.

([375]) ديمة السمان، القافلة، ص16.

([376]) القرشي، جمهرة أشعار العرب، 1/ 69.

وظفت الأسطورة الشعبية في نسج نصها الروائي عندما قالت على لسان الراوي: "قال قائل إنه بينما كان متجهًا لأداء صلاة الفجر إلى الجامع القريب من الشاطئ.. رأى فتاة تحيط بها أشباح حملوها إلى السفينة وهي تصرخ وتقاوم.. فاقشعر بدنه.. ووقف شعر رأسه خوفًا.. وقفل راجعًا إلى بيته بما رأى.. فبسملت زوجته واستعاذت بالله من الشيطان الرجيم.. وأحضرت له (طاسة الرجفة)(377) فأسقته(378). وقد ورد مثل هذا اللفظ، في (معجم الألفاظ التراثية).

لقد أرادت الكاتبة من خلال هذا التوظيف أن تبين لنا مدى الحيرة التي أصابت الناس من اختفاء الأميرة غير المبرر، فأصبح الناس ينسجون القصص الخيالية، وينسبون اختفاء الأميرة إلى قوة خارقة هي قوة الأشباح التي خطفت الأميرة، لدرجة أن الناس البسطاء العاديين أخذوا يرون القصص بطريقة تمثيلية مقنعة، فيصاب الشخص بالخوف والهذيان والغياب عن الوعي.

---

(377) طاسة الرعبة: أو طاسة الرجفة: هي عبارة عن طاس نحاسيّ صغير، مقعّر، وعلى حافته الدائرية زوائد وأهداب معدنية، وعليه كتابات ذات نقش ديني، وتدخل (طاسة الرعبة) في الميثولوجيا الشعبية بقوة وعند الحاجة إليها، كان يوضع فيها الماء ليلاً، ليسقى منها الشخص (المرعوب) ثلاث مرات قبل طلوع الشمس. حسين لوباني، معجم الألفاظ التراثية في فلسطين، ص 285.

(378) ديمة السمان، الأصابع الخفية، ص14-15؛ تكرر في برج اللقلق، 1/ 23 و 1/ 47.

وقد أجادت الكاتبة في توظيفها، فقد كان مناسبًا للحدث القصصي، ومتماشيًا مع الحبكة بصورة متناغمة. ووظفت الكاتبة الأسطورة عندما قالت على لسان (الشيخ): "أشار عليهم كهنتهم أن يفتدوا أنفسهم ومزروعاتهم وحيواناتهم بقربان بشري.."[379].

وقد جاء ذكر هذه الأسطورة في التاريخ المصري القديم، عندما كان أهل مصر يقدمون فتاة من أجمل بناتهم بعد أن يزينوها بالحلي والملابس الأنيقة وكأنها ذاهبة إلى عريسها، ثم يحتفلون بها عروسًا للنيل من أجل أن يرضى عنهم النيل فيفيض، وقد وظفت الكاتبة هذه الأسطورة بشكل منسجم مع روح النص المروي الذي أفاد حبكته الروائية.

وظفت الكاتبة المعتقد بتفسير الأحلام عندما قالت على لسان (عناد): "جهز لنفسه فنجان قهوة.. فالنار لا تزال مشتعلة.. وجلس يفسر الحلم، قال: العصفور أنا.. والعصفورة نفوذ.. والثعبان العدو.. لا تفسير للحلم غير ذلك.. ولكن لماذا انتحرت العصفورة؟"[380].

فقد قال (ابن سيرين) في تفسير الأحلام عن العصفور: "العصفور رجل ضخم عظيم الخطر والمال، خامل لا يعرف الناس حقوقه ضار

---

[379] ديمة السمان، الأصابع الخفية، ص 129.

[380] ديمة السمان، جناح ضاقت به السماء، ص49.

لعامة الناس، محتال في أموره، كامل في رياسته سائس شاطر مدبر. وقيل إنه امرأة حسناء مشفقة(381). لقد وظفت الكاتبة ذكرها للأحلام وتفسيرها لكي تعبر عن شغف (عناد) بـ (نفوذ)، وبأنه يراها في صحوه ومنامه، وعندما فسر الحلم قال بأن العصفورة هي (نفوذ)، تمامًا كما فسرها ابن سيرين في كتاب الأحلام بأنها المرأة الحسناء، وقد استفاد النص من هذا التوظيف فكان منسجمًا مع روح الرواية.

(381) محمد بن سيرين، تفسير الأحلام، ص242.

obeikandl.com